التحديات التي تواجه الحفاظ على التراث الثقافي النوبي بشمال السودان

دراسة ميدانية فى الأنثروبولوجيا الثقافية

د/ محمد مسعد إمام عفيفى(*) أ.د / سلوى درويش(**) أ.د / سعد عبد المنعم بركة(***)

الملخص

لقد إختلفت طبيعة التحديات التي تواجه الحفاظ على التراث الثقافي داخل المجتمع النوبي، مما أثر بشكل واضح على دور هذا التراث في الحياة الثقافية والاجتماعية في المنطقة النوبية بشمال السودان، وتمثلت التحديات والتهديدات التي تقف أمامهم في الحفاظ على تراثهم الثقافي في تحديات إجبارية وتحديات اختيارية بمعنى أن هنا تحديات فُرضت على النوبيين مثل التهجير القصرى التي تعرض له النوبيين نتيجة لإقامة السدود، والتي يعتبره النوبيين من أهم التحديات التي واجهتم في الحفاظ على تراثهم، وهذا يرجع لإرتباط التراث الثقافي النوبي بالبيئة الإيكولوجية في المنطقة النوبية والتي تمثلت في نهر النيل وما يرتبط به جزء كبير جداً من التراث الثقافي النوبي، بالإضافة لذلك نجد أن النوبيين لديهم اعتقاد قوى جداً أن هناك اتجاه حكومي على مدار السنوات الماضية للقضاء على النوبيين وتراثهم الثقافي ويستدلون على ذلك بالممارسات الحكومية ضدهم مثل بناء السدود في المناطق النوبية وما ينتج عنه من ضياع التراث النوبي، وكل ذلك يؤدى في النهاية للقضاء على تراثهم وخاصة اللغة، حيث يعتبر النوبيون أن القضاء على اللغة النوبية هو القضاء عليهم تماماً وهذا ما تريده السلطات الحاكمة في السودان وهذا هو الرأي السائد لدى النوبيين.

(*) ، عدد ٤٤، يوليو ٢٠١٨
ص ص ٣٧٣ - ٤١٠ .

ويرى النوبيين أن التغلب على هذه التحديات يقوم على تحالف النوبيين كقوة واحدة سواء كان في السودان أو خارج السودان لكى ، وتكاتف أعضاء المجتمع النوبي مع المثقفين النوبيين للمطالبة بممارسة أنشطتهم الثقافية المميزة باعتبارها من أهم الثقافات الموجود داخل السودان.

ويمكن القول أن الاهتمام بالتراث الثقافي يشكل ضرورة تاريخية حيوية، لأنه يشكل العمق التاريخي لوجودنا وكنزاً ثقافياً ثرياً لا يفنى لأجيال تريد أن تحقق وجودها وهويتها، لذلك يجب أن تقوم هذه الأجيال بتنمية القيم الإيجابية في هذا التراث والاستفادة منه في بناء الحاضر والمستقبل، فالتراث الثقافي لا نرثه بل نحن مؤتمنون عليه وديعة ثقافية لأطفالنا وأحفادنا من بعدنا يضمن لهم هويتهم ويضفى على حياتهم معنى ودلالة وقيمة إنسانية مميزة، وبالتالي يجب حمايته من الاندثار والتغلب على التحديات والتهديدات التي يتعرض لها.

مقدمة

الحفاظ على التراث الثقافي هو مسئولية جماعية بين أفراد المجتمع النوبي وبين المسئولين على الإدارة الحكومية في السودان باعتبار أن النوبة هي جزء من الأراضي السودانية، بالإضافة للمسئولية التي تقع على المثقفين النوبيين الذين يتقلضون أماكن مميزة داخل السلطة في السودان، بالتالي يجب على هؤلاء التصدي للتحديات والمشكلات التي تواجه الحفاظ على ثقافة مميزة في تاريخ السودان بل في تاريخ القارة الإفريقية. فالحفاظ على التراث الثقافي النوبي هو حفاظاً على الهوية الثقافية للنوبيين والتي كونت في النهاية الهوية الثقافية للسودان بصفه عامة، ويجب أن يدرك النوبيين والسودانيين بصفة عامة أن ضياع التراث النوبي يعنى ضياع جزء كبير من التاريخ الثقافي السوداني. وعلى الرغم من إدراك النوبيين بأهمية تراثهم الثقافي إلا أنه يوجد تقصير نحو المحافظة عليه وهذا ليس رأى الباحث ولكنه باعتراف كل الأشخاص التي قام الباحث بإجراء مقابلات معهم أثناء فترة الدراسة الميدانية.

ولقد تعددت التحديات التي تواجههم في الحفاظ على تراثهم الثقافي، حيث أخذت أشكالاً متنوعة منها ناتج عن التجهير القصرى للنوبيين من مناطقهم ومنها

الاحتكاك الثقافي مع الآخرين مما أدى إلى التأثر بالثقافات الأخرى وبالتالي ضعف التمسك بتراثهم الثقافي.

ونتيجة للتغيرات التي طرأت على كافة المجتمعات الإنسانية بصفة عامة والمجتمع النوبي بصفه خاصة حدث تغير في نسق القيم والأفكار لدى النوبيين فأصبح الجيل الجديد لا يعلم شيئاً عن ما تركه له أجداده، بسبب التعليم والتكنولوجيا وغيرها من العوامل التي تؤدى إلى الإبهار بما هو جديد وترك ما هو تراثي.

والجدير بالذكر أن هناك اعتقاد واتجاه سائد لدى النوبيين أن هناك ممارسات من جانب الحكومة السودانية تهدف للقضاء على التراث الثقافي النوبي ، وهذا ليس رأى الباحث ولكن رأى كل النوبيين الذى قابلهم الباحث أثناء دراسته الميدانية باستثناء شخص واحد فقط وهو الأستاذ عبدالمجيد محمد عبدالمجيد وهو مسئول نوبي في الحكومة السودانية ، حيث يرى النوبيين أن بناء السدود داخل المناطق النوبية وما ينتج عنها تهجير لهم وغمر تراثهم بالمياه يعد من أهم التحديات التي تقابلهم في الحفاظ على تراثهم.

المحور الأول :- الإطار النظرى والمنهجى للبحث

أولاً :- أهداف الدراسة

تقوم الدراسة الحالية من أجل تحقيق هدف رئيسى يتمثل فى « التعرف على أهم التحديات التى تواجة المجتمع النوبى فى الحفاظ على تراثهم الثقافى «

وقد إنبثق من هذا الهدف مجموعة من الأهداف الفرعية والتى تمثلت فى :-

1- التعرف على التحديات الداخلية للحفاظ على التراث الثقافى
2- التعرف على التحديات الخارجية للحفاظ على التراث الثقافى
3- معرفة الرؤية المجتمعة لهذه التحديات
4- التعرف على طرق التغلب على هذه التحديات

ثانياً:- تساؤلات الدراسة

هناك تساؤل رئيسى وهام قامت الدراسة من أجل الإجابة عليه تمثل فى « ماهى التحديات التى تواجة النوبيين فى الحفاظ على تراثهم وكيفية التغلب على هذه التحديات؟ «

ثالثاً:- مفاهيم الدراسة

1- مفهوم الحفاظ

الحفاظ هو «صيانة الأشياء والعناية بها لتؤدي وظيفتها التي وجدت من أجلها بكفاءة عالية، ومن ثم الحفاظ على قيمتها المادية رغم انقضاء عمرها الافتراضي» (Reel,2004) ، كما يعرف الحفاظ بأنه "تلك الأعمال التي تتخذ لمنع التأكل والتي تطيل بقاء الميراث الطبيعي والبشرى للإنسانية وذلك من الصرح الهائل إلى الأثر الضئيل" (Kane,2015).

ويمكن القول بأن الحفاظ هو " العملية التي تشمل كل الإجراءات والأساليب التي توفر للموروث الثقافي البقاء لأطول مدة ممكنة، ليؤدي دوراً في حياة المجتمع الذى يتعايش معه(الخضراوي، ٢٠٠٣).

التعريف الإجرائي للحفاظ

يمكن تعريف الحفاظ من خلال الدراسة الميدانية « بأنه المحاولات التي يقوم بها أعضاء المجتمع والمنظمات النوبية في حماية تراثهم الثقافي من التحديات التي تهدد استمراره».

2- مفهوم التراث الثقافي

التراث بأنه « تعبير عن وجدان أفراد المجتمع، حيث يحمل في طياته الملامح النفسية والفكرية للمجتمع ،وأنه ثقافة الشعب التي تراكمت منذ نشأة هذا الشعب وانتشرت وتطورت، وهو الذى صنعها وأوجدها، فهي تكشف بلا شك عن ملامحه الوطنية والقومية من جميع جوانبها، فإذا كان التراث يعبر عن أمال الشعب وتطلعاته وبنيانه النفسي فإنه أيضاً يعمق شعور الإنسان بالانتماء ويثبت أصالة الشعب، كما

أنه يرتبط بماضيه وتراثه، وذلك يسهم في تكوين وحدة الثقافة بين أبناء المجتمع في الداخل والخارج. (عبدالرحمن ، ٢٠٠٧)

هو الملموس ممّا أنتجه السابقون من مبانٍ، وأدوات ومدن وملابس، وغيرها ممّا هو مادي، وغير الملموس من معتقدات، وعادات، ولغات، وتقاليد وغيرها. (عليان، ٢٠٠٥)

وفى الاصطلاح تعنى كلمة التراث " الاتصال الزمنى بين الأجيال ومعنى التلازم العضوي الذى لا مفر منه على صعيد الحياة والفكر، كما تأتى ضلال تتصل بفكرة الانتماء القومي ووحدة الجماعة وسريان الماضي في الحاضر، أي معنى ما يرثه القوم عن أسلافهم فيما يتعلق بالحضارة والثقافة من جهة شقيها المادي والمعنوي، مع ما يتعلق بالتعامل معه من أدوات منهجية وإجرائية، بينما يعرف أركون التراث بأنه " مجموعة متراكمة ومتلاحقة من العصور والحقب". (إبراهيم، ٢٠١٠)

التعريف الإجرائي للتراث الثقافي المادي

وفي ضوء ذلك, يمكن تعريف التراث الثقافي المادي إجرائياً وفقاً لما جاء بالدراسة الحالية بأنه « عناصر الثقافة المادية التي ظلت سنوات كثيرة جزء من الحضارة النوبية مثل المسكن النوبي بطبيعته المميزة والزى النوبي سواء النسائي أو الرجالى ، بالإضافة لذلك الصناعات اليدوية المميزة للنوبيين ، وتلك العناصر تدل على تكيف الإنسان النوبي مع البيئة المحيطة به «

رابعاً:- المناهج المستخدمة

1- **المنهج الأنثروبولوجى** إن أهم ما يميز الأنثروبولوجيا عن العلوم الأخرى هو منهج البحث، واعتماد الدراسات الأنثروبولوجية على أداة أساسية في الحصول على المعلومات وهى الملاحظة بالمشاركة، التي تقضى على الباحث أن يقيم فترة كافية من الزمن في مجتمع الدراسة، بالإضافة إلى المقابلة كأحد أهم أدوات البحث الأنثروبولوجي (محمد و شكري، ١٩٩٢).

قد ساعد المنهج الأنثروبولوجي الباحث معرفة التحديات التي تواجه الحفاظ على هذا التراث والتعرف على رؤية أفراد المجتمع للتحديات وكيفية التغلب عليها، وذلك من خلال أدوات البحث الأنثروبولوجى المتمثلة فى المقابلة والملاحظة ودليل العمل الميدانى.

-2 **منهج رؤى العالم** يمثل رؤى العالم أحد المداخل النظرية والمنهجية الهامة المستخدمة في الدراسات الأنثروبولوجية لما لها من أهمية في فهم المقومات والعوامل الاجتماعية والثقافية في أي مجتمع، كما أن دراسات رؤى العالم والدراسات الاجتماعية التي تبنى على أساسها تتميز بالشمولية والكلية، فهي تتصف بالشمولية لأنها تتضمن كافة الجوانب الفردية والمجتمعية والجوانب المعرفية والمعيارية والوجدانية التي تعبر عن الثقافة السائدة في مجتمع ما دون التميز أو التجهيز لجانب ما على حساب الجوانب الأخرى، وقد عرفها سول تاكس بأنها» الفهم العقلي للواقع بما يتضمنه من معرفة ومعتقدات عن الطبيعة والإنسان ، كما عرفها كليفورد جيرتز بأنها» الصورة التي تتكون لدى الناس عن الأشياء الموجودة في الواقع، فهي بمثابة تصورهم عن الطبيعة والذات إلى جانب أنها تتضمن أكثر الأفكار وضوحاً عن النظام، وعلى الرغم من أن مفاهيم رؤى العالم تختلف باختلاف دور الفرد في الثقافة التي ينتمى إليها هذا الفرد، إلا أنها جميعاً تتفق في كونها تهدف إلى التعرف على موقف ونظرة الإنسان إلى العالم الذى يعيش فيه بكل ما يدخل في تكوينه من ظواهر طبيعية وفيزيقية (حسين ، ٢٠١٦).

وجاء الاستعانة بمنهج رؤى العالم في الدراسة الحالية واضحاً في معرفه رؤية أفراد المجتمع لعناصر التراث الثقافي ورؤيتهم في التحديات وكيفية التغلب على هذه التحديات.

خامساً:- مجالات الدراسة

(١) المجال الزمنى

حيث استغرقت الدراسة ككل مدة سنتين ، وقد استغرقت الدراسة الميدانية لمدة شهر بدأت في ٢٠١٧/١/١ حتى ٢٠١٧/٢/١ .

حيث بدأ الباحث جولته بالخرطوم العاصمة السودانية وأقام بها لمدة عشرة أيام, ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة مروى ومكث بها لمدة أربعة أيام, وكانت محطته التالية في مدينة دنقلا وقد مكث بها لمدة خمسة أيام, ثم انتقل بعد ذلك إلى محلية السكوت ومكث بقرية عبرى لمدة ستة أيام, وأختتم جولته بزيارة مدينة وادى حلفا ومكث بها لمدة سبعة أيام, ثم عاد مجددًا إلى الخرطوم العاصمة ومكث بها لمدة ثلاثة أيام ثم غادر الأراضي السودانية عائدًا إلى مصر.

(٢) المجال المكاني

لقد طبقت الدراسة الميدانية في دولة السودان حيث كان ذلك في بداية شهر يناير من عام ٢٠١٧ ، حيث انقسمت الدراسة إلى مناطق متعددة حيث شملت الدراسة المناطق التالية :-

١- مدينة الخرطوم العاصمة السودانية (وجود مقرات المنظمات النوبية فى الخرطوم)

٢- مدينة مروى في الولاية الشمالية

٣- مدينة دنقلا في الولاية الشمالية

٤- قرية عبرى التابعة لمحلية السكوت في الولاية الشمالية

٥- مدينة وادى حلفا في الولاية الشمالية.

(٣) المجال البشرى :- لقد شملت الدراسة مجموعة من المقابلات الفردية المتعمقة حيث ٤٧ مقابلة

المحور الثانى :- مجتمع الدراسة « النوبة شمال السودان»

يرى بعض المؤرخين أن كلمة النوبة مشتقة من كلمة نب أو نبو "NABU" التي تعنى الذهب باللغة المصرية القديمة، حيث كانت هذه البلاد هي مصدر للذهب بل كانت المنطقة الوحيد التي تغذى مصر بالذهب ، وكان يطلق على نائب الملك التي يحكم تلك المنطقة " نبو" وهى تعنى المشرف على أرض الذهب ، والبعض الأخر يرى أن مصدر هذا الاسم هو الكلمة القبطية " نوبت " NOPT" التي تعنى ضفر أو

يضفر وعلية يكون معنى كلمة نوبة ذو الشعر المضفر أو المجعد ، وهذا يدل على القوم الذين كانوا يسكنون تلك البلاد. وهناك من يؤكد أن كلمة النوبة فكان أول ذكر لها جاء في كتابات الجغرافي الإغريقي إسترابو (٦٤ق.م -٢٤ق.م) حيث أشار أن النوبة جنس يسكن غربي النيل ما بين مروى وثنية النيل شمالاً. (سيد ، ٢٠٠١)

الموقع :- إعتقد الكثير أن المنطقة الواقعة إلى الشمال من دنقلة حتى وادى حلفا هي بلاد النوبة، ولكن يؤكد كثير من باحثي الجغرافيا أن النوبة تبدأ من مدينة الدبة في الشمال حتى أسوان ، ويتميز هذا الإقليم بأنه جزء من الصحراء العظمى التي تمتد من الشرق إلى الغرب في الجزء الشمالي من إفريقيا، ويقع إقليم النوبة عند خط ٢٢ شمالاً ، حيث تقع في الولاية الشمالية من السودان التي تقع على خطيّ طول (١٠-٣٢-٥٠-٢٥) شرقاً وخطيّ عرض ٣٢-٦١ شمالاً تحدها من الشمال جمهورية مصر العربية وإلى عمق الصحراء عن الحدود الليبية ومن الشرق ولاية نهر النيل ومن الجنوب ولايتي الخرطوم وشمال كردفان ومن الجنوب الغربي ولاية شمال دارفور. يجري فيها النيل من الجنوب إلى الشمال بطول ٦٥٠ كلم، تبلغ مساحتها حوالي ٦٧,٣٤٨ كم مربع، تعتبر الولاية الأولى من حيث المساحة. (طه ، ٢٠١٧)

المناخ:- يسودها المناخ الصحراوي الجاف ،حيث نجد درجة الحرارة في الصيف خاصة في شهر مايو ويوليو مرتفعة جداً ومنخفضة إلى أدنى مستوياتها في الشتاء خصوصاً في شهري ديسمبر ويناير، وتسقط بعض الأمطار الشتوية في المنطقة وتتميز بسرعة الرياح واتجاهاتها خلال شهور السنة المختلفة تلعب دوراً مهما ومؤثراً على مناخ هذه المنطقة وأيضاً على زراعتها ، وتسود الرياح المثيرة للأتربة والغبار خلال يونيو ويوليو وتتحول الرياح إلى متوسطة ثم خفيفة السرعة، وتعد الرياح شيء دائم الحدوث في المنطقة حيث تجلب رياح الشتاء كتلاً من الهواء البارد من باطن الصحراء مما تعقر صفاء الحياة، أما رياح الصيف فهي أوسع رحابة لأنها بشكل عام تعلم عن حلول تيار منعش في معظم الأحيان، والجدير بالذكر أنواع طقس الشتاء مكروهة لأنها أشد من تطرف الصيف. (حسين ، ٢٠٠٨)

من أهم الموارد المائية في بلاد النوبة هو نهر النيل وربما يعتبر المورد الوحيد والرئيسي، حيث يمثل نهر النيل ظاهرة طبيعية وجغرافية هامة، فالنيل له تنشئة خاصة تجعله مختلفاً كثيراً من أنهار العالم. ويجرى نهر النيل بين سهول صخورها من الخرسان النوبي المتكونة فوق الصخور القديمة الشديدة والصلابة، ويتميز نهر النيل بكثرة الالتواءات ويتعرض لمعوقات في طريقة وهى عبارة عن مجموعة من الجنادل والشلالات ، ويرجع ذلك إلى تداخل الصخور حيث قام النهر بتعرية الصخور اللينة المتمثلة في الخرسان النوبي الذى يغطى مساحة واسعة في هذه المنطقة حتى ظهرت صخور جرانيتيه بلورية التي ظلت كجذور صخرية، وقد شهدت منطقة النوبة مراحل تطور الوادي النهري حيث يكاد يمر بثلاث مراحل في المنطقة ولطبيعة المنطقة الصخرية نجد الشلالات والجنادل والظواهر الجغرافية المتنوعة. (أيوب ، ٢٠١١)

النشاط الإقتصادى: التجارة كانت لبلاد النوبة تجارة مميزة منذ مر العصور، حيث كان النوبيين يصدرون كميات من ريش النعام وسن الفيل والأبنوس والصندل وغيرها من الأخشاب ، وقد كان أهل النوبة يستخرجون الحديد ويصنعونه وكانت عاصمتهم مروى مركزاً لصناعة أدوات الحديد وكانت تصدره إلى كل الجهات في القارة الإفريقية غرباً وشرقاً وجنوباً ، وكانت بلاد النوبة تجلب لمصر المواشي وخشب السنط والفحم والصمغ وجلود الحيوانات والأحجار الكريمة. (الحاج ، ٢٠٠٣). ومن أهم أنواع التجارة التي اشتهرت بها بلاد النوبة وذكرها التاريخ هي تجارة الرقيق، حيث كان الرقيق يصدر من بلاد النوبة إلى مصر وبلاد الحجاز وغيرها، حيث شاهدت مصر تدفق أعداد كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود في عصرها المملوكي، فقد كانت هناك أسواق معروفة لتجارة الرقيق في بلدان معينة، وبالتالي ظلت معاهدة البقط أساساً للعلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة، وبالتالي نجد أن كثرة تردد التجار المسلمين على بلاد النوبة كان هدفه الرئيسي هو شراء الرقيق.(باز ، ٢٠٠٦)

الزراعة لقد ارتبطت كافة الأنشطة الاقتصادية للنوبيين بالزراعة، حيث نجد زراعة النخيل من أهم الزراعات التي توجد في النوبة السودانية ، وبالتالي نجد كل

أنشطة الحياة اليومية ترتبط بزراعة النخيل ، ونجد أن الأراضي النوبية هي أراضي ضيقة على شكل شريط محصور بين الكثبان الرملية التي تجلبها الرياح الشمالية الغربية ومناسيب النيل المتغيرة ، وأخصب هذه الأراضي هي تربة الجروف أما الأراضي التي كانت في المواقع المرتفعة كانت تروى بالسواقي، ومن اهم المحاصيل الزراعية فى النوبة نجد التمور والذرة والبرسيم والقمح.(عبداللطيف، ٢٠١٥)

المحور الثالث :- التحديات التي تواجه الحفاظ على التراث الثقافي المادي النوبي

١- التهجير

يعتبر التهجير من أهم العوامل المسئولة عن عدم الحفاظ على التراث الثقافي النوبي، وذلك وفقاً لما أكدته آراء الإخباريين بالإجماع، حيث يرى أفراد المجتمع النوبي في شمال السودان أن أسوأ شيء تعرضوا له هو عمليات التهجير المختلفة والتي بلغت ثلاثة عمليات أخرها كان في عام ١٩٦٤ عند بناء السد العالي في تلك الفترة، وقد نتج عن هذا التهجير من فقدان تراثهم الثقافي والأثري التي غمرته مياه السد العالي والتي وصلت لمساحة ١٥٠ كيلو متر مربع داخل الأراضي النوبية.

ويؤكد الأستاذ الدكتور محمد جلال أحمد هاشم لم يكن تهجير النوبيين وإغراق النوبة في الثامن عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٦٣ من أجل السبب المعلن وهو بناء السد العالي بل كان هذا من أجل القضاء على النوبيين وتراثهم الثقافي، حيث هذا مخطط لإنهاء وجود النوبيين وهم سكان البلاد الأصليين في السودان في موطنهم التاريخي وإغراق حضارة تاريخية من أوائل الحضارات الإنسانية وأعظمها داخل القارة الإفريقية.

كما يؤكد أن المخطط قد بدأ أثناء فترة حكم الإنجليز، حيث كانوا لا يعترفون بأن الحضارة النوبية هي حضارة إفريقية نتاج فكر الرجل النوبي الأسود والدليل على ذلك علماء الأثريات الذين رفضوا الإقرار بالحضارة النوبية وينسبوها للرجل الأبيض.

ويرى البروفسور على عثمان محمد صالح أنه في عام ١٨٨٩ م قامت بريطانيا بوضع حجر الأساس لبناء خزان أسوان تحت دعاوى زيادة الرقعة الزراعية والتوسع في زراعات القطن، وكانت هي بداية المخطط حيث بدأ النوبيين في الهجرة حيث تم نزع ملكية الأراضي، ثم في عام ١٩٠٢م تم الافتتاح ونتج عن ذلك إغراق ١٠ قرى نوبية دون توجيه أي إنذار لأصحاب هذه القرى، وفى عام ١٩١٢ كانت التعلية الأولى للخزان والذى أغرق ٨ قرى نوبية أخرى، وفى عام ١٩٣٣م كانت التعلية الثالثة لخزان أسوان ونتج عنها غرق ١٠ قرى نوبية.

أما بناء السد العالي كانت الضربة القوية للنوبيين وتراثهم الثقافي وحياتهم كلها، حيث في التاسع من شهر يناير عام ١٩٦٠ وضع الرئيس المصري جمال عبدالناصر حجر الأساس لبناء السد العالي، وفى عام ١٩٦٣ يقوم المسئولين بتجميع النوبيين من المعلمين والعمد لتحذير الناس من رفض التهجير.

ويؤكد الأستاذ ميرغني ديشاب إنه في يوم الجمعة الموافق ١٨ أكتوبر عام ١٩٦٣م، كان يوماً عادياً في حياة أغلب البشر والشعوب ولكنه لم يكن يوماً عادياً في حياة النوبيين، حيث أنه كان يوم الرحيل والإقلاع من الجذور يوم الهجرة المُرة يوم يفارق فيه النوبيون أرض الأجداد التي لم يعرفوا سواها ولم يعشقوا إلا إياها ويصف هذا اليوم بالكلمات التالية « حلت ساعة الفراق حيث دخل معظم أرباب الأسر لمنازلهم لإلقاء النظرة الأخيرة عليها، ثم خرجوا وهم ينزعون المفاتيح الخشبية من الأبواب الخارجية «كتذكار»، واتجهوا بعد ذلك في موكب كبير للمقابر لقراء الفاتحة على قبور أسلافهم وموتاهم ثم عادوا يذرفون الدموع ويبكى بعضهم بحرقة وعويل وظلوا يديمون النظر إلى مواطنهم ، وفى المساء حين أرسل القطار صفارته العالية انهمرت دموع الركاب وكانوا يرددون العبارات مثل «أفيالوجو... هيروجو» وتعنى «رافقتكم العافية وعلى خيرة الله»، وعندما يتجه القطار ناحية الجنوب ويبعد عن موطنهم الأصلي ينظرون جيداً لبلادهم التي فارقوها مدى الحياة.

وهنا يؤكد الأستاذ معاوية سيد أحمد أن هناك عدد من الأسر قد رفضوا التجهير ويبلغ عددهم ٥٢٥ أسرة نوبية ظلت في مكانها الأصلي ، حيث إذا اقتربت

منهم المياه انتقلوا إلى مكان أبعد حتى استقروا في مكانهم الحالي في وادى حلفا، وقد مارست الحكومة السودانية كافة الضغوط على هذه الأسر من أجل إخضاعهم لقرار التهجير ولكنهم صمدوا أمام ذلك ، حيث يؤكد الإخباري أن من أشكال الضغوط التي مارستها الحكومة أنها أغلقت المدارس والمستشفيات ونقلت كافة الخدمات الحكومية من هذه المنطقة ، وتوقفت حركة القطارات والمواصلات المؤدية لتلك المنطقة، بل تعدى الأمر إلى أنها نشرت مجموعة من الكلاب المسعورة لتخويف السكان، ولكن صمدا الأسر النوبية حتى تغيرت الحكومة وجاءت حكومة أخرى لتخضع لأمر النوبيين وتمدهم بالخدمات مرة أخرى.

وكانت الوجهة المقصودة للنوبيين هي منطقة شرق السودان ، حيث اختلاف الظروف الطبيعية والمناخية عن البلاد الأصلية للنوبة في شمال السودان، وهذا كان له تأثير كبير على التراث الثقافي المادي للنوبيين مثل المسكن النوبي والزى النوبي والصناعات اليدوية.

فنجد تأثير التهجير على المسكن النوبي واضحاً في كافة مراحل البناء والتصميم، حيث المواد المستخدمة في عملية البناء غير متوفرة في البيئة الجديدة بشرق السودان بالتالي قام النوبيون باستخدام غيرها ، بالإضافة للتصميم حيث أصبحت الظروف المناخية تجبر النوبيين بناء منازلهم بأشكال تتوافق مع كثرة الأمطار فبالتالي قام النوبيون بالاستغناء عن جريد النخيل واستبداله بالصاح والمواسير الحديد.

أما تأثير التهجير على الزى النوبي فكان واضحاً جداً ، حيث كثرة الأمطار والتربة الطينية التي تتميز بها منطقة شرق السودان أجبرت المرأة النوبية التخلي عن الجرجار النوبي المميز ، حيث يتميز الجرجار بالطول ويجرجر على الأرض عندما تسير المرأة به وهذا لا يتوافق مع المطر والطين حيث إذا ارتدت المرأة الجرجار فإنه يتسخ بالطين ولا تستطيع أن تسير بشكل طبيعي مما أدى إلى تخلى المرأة عنه وارتداء ملابس أخرى.

ونجد تأثير التهجير على الصناعات اليدوية النوبية واضحاً تماماً ، حيث كانت بلاد النوبة تتميز بالنخيل الكثيف وبالتالي تتوافر المواد الخام التي تقوم عليها

كافة الصناعات اليدوية، أما منطقة شرق السودان لا يوجد بها زراعة النخيل بسبب انتشار أمراض النخيل وبالتالي لا تتوافر المواد الخام والتي أدت لعدم قيام الصناعات بهذه الصناعات واستبدالها بالصناعات البلاستيكية والصيني.

٢- الهجرة العكسية للنوبيين

ويرى الباحث ومن أهم العوامل التي تؤدى إلى هجرة السكان من مكانهم الأصلي إلى أماكن أخرى هي العوامل البيئية، حيث تؤثر هذه العوامل على حياة الأفراد مما يجعلهم لا يستطيعون التكيف مع تلك الظروف ومنها على سبيل المثال المناخ والتقلبات الجوية التي تعرض لها النوبيون في شرق السودان والتي دفعت الناس للبحث عن أماكن أخرى يعيشون فيها.

وتعرض أفراد المجتمع النوبي لهجرات كثيرة ويرجع ذلك لتعدد الأسباب التي تدفعهم إلى ترك مواطنهم الأصلية والبحث عن أماكن أخرى للعيش فيها ، وهنا يؤكد الأستاذ نجم الدين الشيخ* "أن النوبيين عندما انتقلوا من وادى حلفا إلى منطقة شرق السودان حيث البيئة الغريبة عنهم وعن طبيعة البيئة التي كانت موجودة في بلادهم الأصلية لم يستطيعوا أن يتكيفوا مع البيئة في شرق السودان وبالتالي بدأ الناس في الانتقال خارج هذه المنطقة، وانتشر النوبيون في وسط السودان وغرب السودان والعاصمة الخرطوم وهذا كان هدف الحكومة السودانية هو تشتيت النوبيين في كافة المناطق لكى تضيع حضارتهم وسط الأجناس الأخرى في السودان، وأيضاً نجد من سافر خارج السودان".

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى هجرة النوبيين عدم توافر الخدمات العامة والمرافق وهذا ما يؤكده الإخباري الأستاذ هشام عنتر حيث يقول " أن إهمال الحكومة للمناطق النوبية دفعت الناس للذهاب خارج تلك المناطق والعيش في مناطق أفضل فعلى سبيل المثال الصحة لا يوجد مستشفيات داخل المناطق النوبية تستطيع استقبال الحالات الحرجة، وهناك قرى ومناطق بأكملها لا يوجد بها حتى مستوصف وهذا ما دفع الناس للهجرة من المناطق النوبية"

ويرى الأستاذ عباس محمد مرسى أن عدم توافر المؤسسات التعليمية والخدمات العامة أدت إلى هجرة الناس حيث يقول "أن لديه ثلاثة أولاد عايشين في الخرطوم من أجل التعليم والواحد عشان يشفهم لازم يسافر مسافة كبيرة جداً، وبعدين انتقالهم للخرطوم يؤدى إلى عدم رغبتهم في العودة مرة أخرى لعبرى وبالتالي هيعيشوا هناك ويتزوجوا هناك"

وفى هذا السياق يرى الأستاذ زاهر أن ضعف وقلة وسائل النقل والمواصلات بين المناطق النوبية وعدم إنشاء طرق ومرافق تخدم القرى النوبية مثل المدارس والمستشفيات، بالإضافة لذلك يوجد قرى ومناطق نوبية حتى الآن لا يوجد بها كهرباء أو خطوط مياه.

ويلخص الأستاذ محمد الشريف "إن إهمال الحكومة للمناطق النوبة وعدم قيام مشروعات تنموية وخدمية أدت إلى هجرة النوبيين من أماكنهم، ويؤكد أن النوبيين الذين هاجروا للأسباب السابقة تتجاوز عددهم عدد النوبيين التي تم تهجيرهم إجبارياً نتيجة لبناء السد العالي"

ويمكن القول بأن الأسباب متعددة ومتنوعة دفعت النوبيين للهجرة، وترك مواطنهم وبالتالي يصاحب الهجرة ترك التراث المادي المرتبط بشكل كبير جداً بالبيئة المحيطة بهم.

٣- التعليم

ويرى البعض أن التعليم يلعب دوراً أساسياً ومحورياً في إحداث التغير وعدم التمسك بالتراث الثقافي بصفة عامة في المجتمعات الإنسانية، بما يؤدى إلى تغير في نسق القيم والأفكار والمعتقدات التي يحملها المتعلمين مما ينعكس في نهاية الأمر على ثقافة هؤلاء الأفراد في مجتمعهم الذين يعيشون فيه، ومن المعروف أن التعليم يؤدى إلى الاحتكاك الثقافي مع أفراد ينتمون إلى ثقافات أخرى مما يحدث نوع من الاستعارات للمفردات الثقافية ينتج عنه التغير الثقافي للمجتمع.

ولكن على الرغم من أهمية التعليم كمحرك أساسي للإبداع الثقافي المؤدى إلى حدوث التغير الثقافي إلا أن هذا لا يمنع من تعايش العناصر الثقافية الجديدة مع التراث الثقافي في المجتمع.

كما يؤدى التعليم إلى تغير اتجاهات الأشخاص نحو الخرافات ويساعد على إحلال حكمة المتعلمين محل حكمة المسنين غير المتعلمين، ولعل هذا الإحلال يتضح من خلال ارتفاع المكانة الاجتماعية للمتعلمين في الأسرة والمجتمع وزيادة فاعلية دورهم في هذا المجتمع .

ويرى الحاج محمد سر الدين أن من أهم طمس الهوية الثقافية وضياع التراث الثقافي النوبي وتحديات الحفاظ عليه هو التعليم ، حيث يتم إرسال الأبناء للتعليم بالخارج وهذا يؤدى إلى حدوث تغير كبير في الثقافة، ويرى أنه كلما ازداد التعليم تغيرت جوانب الحياة والممارسات الثقافية التي تميزت به المجتمعات النوبية، ويؤكد أن تصارع أبناء المجتمع في إرسال أبنائهم للتعليم بالخارج يساعد ذلك على القضاء على تراثهم الثقافي، وهذا ما يضعف الوعى لدى الأجيال الجديدة في التمسك بالموروث الثقافي النوبي المميز».

وهناك رأى أخر مختلف للدكتورة عفاف سليم في أثر التعليم على التراث الثقافي فتقول "أن التعليم هو أهم شيء لدى النوبيين، حيث نجد أن انتقال الرجال إلى العمل بالخارج أدى إلى الاحتكاك الثقافي ومن هنا عرف النوبيون التعليم عن طريق الانتقال، فنجد أن أوائل المتعلمين في السودان من النوبيين"، وترى أن التعليم أثر بشكل إيجابي على التراث الثقافي حيث تقول "أن الطلاب النوبيين في الجامعات يقومون بدراسة التراث النوبي من خلال عمل المشروعات البحثية ومشروعات التخرج من الكليات وبالتالي يعتبر ذلك نوع من التوثيق التي يعد بمثابة أليه من أليات الحفاظ على التراث النوبي، بالإضافة لذلك أن دراسة التراث النوبي في الجامعات السودانية المختلفة يؤدى لانتشار الثقافة النوبية ويتعرف عليها الكثير من غير النوبيين خاصةً أن هذه الأبحاث تترجم باللغة النوبية والعربية والإنجليزية".

بينما يرى الشاعر النوبي ميرغني ديشاب أن " التعليم شيء مهم ويمكن استخدامه في الحفاظ على التراث الثقافي فعلى سبيل المثال تعليم اللغة النوبية للأطفال ومعرفة مسميات ومفردات الثقافة باللغة النوبية يساعد ذلك كثيراً في استمرارها والحفاظ عليها"

وهنا يمكن القول بأن التعليم يعد من أهم التحديات التي تواجه المجتمع النوبي في الحفاظ على تراثهم ، حيث يرى الباحث من خلال ملاحظته الميدانية أن التعليم يسهم في التخلي عن التراث الثقافي النوبي ، حيث يعمل على تغير نسق المعتقدات والأفكار لدى المتعلمين والتي يدفعهم بالتسمك بما هو جديد وترك ما هو قديم.

٤- الاحتكاك الثقافي

وقد اتجه الكثير من الباحثين الأنثروبولوجيين إلى معرفة دور الاتصال الثقافي في عملية التغير الثقافي، حيث أكدوا على أن الاتصال الثقافي هو العامل الأول في إحداث التغيرات وعدم التمسك بالتراث في المجتمعات نتيجة الاتصال والاحتكاك مع المجتمعات الأخرى

وهنا يؤكد الأستاذ معاوية « أن الاختلاط الذى حدث بين النوبيين وغيرهم من الثقافات الأخرى أدى إلى التأثير السلبى على تراثنا الثقافي، والاختلاط جاء نتيجة انتقال النوبيين من أماكنهم الأصلية لأسباب كثيرة منها الاختياري لعدم وجود مشروعات خدمية ومنها إجباري نتيجة لبناء السدود في المناطق النوبية»

واتفق الأستاذ عبد المجيد محمد عبد المجيد مع الأستاذ معاوية حيث يرى « أن الهجرة والانتقال من مكان لآخر يؤدى إلى حدوث احتكاك واختلاط بين النوبيين وغير النوبيين وهذا ما حدث في النوبيين الذين يعيشون في الخرطوم، حيث نجدهم تخلوا عن زيهم النوبي وارتدوا الزى السوداني كما تخلت المرأة عن الجرجار النوبي، بالإضافة إلى تغير نمط المسكن النوبي والعيش في مساكن حديثة على الطراز السوداني كل ذلك تأثير بشكل كبير على تراثنا الثقافي، ونجد أن الأجيال القادمة لا تعرف شيئاً عن تراثها الثقافي نتيجة العيش في بيئة غير نوبية والتي أدت إلى تغير مفردات الثقافة النوبية بشكل كبير».

ويؤكد الحاج سر الدين أن الاختلاط مع الغرباء لعب دور كبير في عدم التمسك بتراثنا النوبي، سواء كان ذلك داخل المناطق النوبية نتيجة للتواجد بعض القبائل الأخرى التي سكنت النوبة في الفترات الأخيرة أو على مستوى انتقال النوبيين إلى مناطق أخرى، وبالتالي حدث اختلاط نتج عنه غسيل مخ للشباب مما أدى الى

التخلي عن زيهم النوبي الأصيل وهكذا أثر الاحتكاك على كافة عناصر الثقافة النوبية مثل اللغة أيضاً".

وهنا يرى الأستاذ سراج عطا أن الاحتكاك الثقافي ساعد على دخول عناصر ثقافية جديدة على الثقافة النوبية نتيجة للتهجير ، والهدف الرئيسي من وراء ذلك التهجير هو تشتت النوبيين وفصل النوبيين السودانيين عن النوبيين المصريين، وهذا ما أثر بطبيعة الحال على التراث الثقافي بشقية المادي والمعنوي، ويرى أن الاحتكاك جاء في غير صالح النوبيين حيث دخلت عليهم عناصر وسمات أخرى لم تكن موجوده لدى النوبيين مثل الكذب والنفاق وهذا الصفات لم تكن موجودة في السابق لدى النوبي".

وخلاصة القول أن الاتصال يعتبر وسيلة فعالة ومؤثرة في نقل عناصر الثقافة والحضارة من مجتمع لآخر، ولا شك أن الاتصال الخارجي يتيح الفرص للتغير وكلما تيسرت وتنوعت وسائل الاتصال كلما زادت فرص الانتشار الثقافي وبالتالي نشطت عمليات التغير الثقافي .

٥- التكنولوجيا

عندما تظهر الاختراعات فإنها تولد حاجات وأساليب تكيف جديدة، ولذلك كانت « الضرورة « هي أم الاختراع كما يقولون فإن الاختراع هو أم الضرورة كما قال « فبلين Veblen " بمعنى أن الاختراع عندما يظهر فإنه يولد ضروريات جديدة أو حاجات جديدة، فاختراع السيارة أو القطار أو الطائرة وكل وسائل المواصلات أحدث تغيرات في مفاهيم الزمان والمكان، بل قد أحدث أشكال من التكيف في الملبس والمسكن ونظم الحياة.

تؤكد الدكتورة فكرية أبو اليزيد أن " من ضمن التحديات التي تواجه الحفاظ على التراث الثقافي هي الوسائل التكنولوجية الحديثة والفضائيات والموضة والأزياء العالمية ، وترى أن الغزو الثقافي التي يحدثه التقدم التكنولوجي أدى إلى ضعف التمسك بالتراث الثقافي المادي وغير المادي، فنجد على مستوى التراث الثقافي المادي البنات في سن التاسعة عشر من عمرها تريد أن تلبس البنطلون والأزياء

العالمية ورفضها ارتداء الجرجار النوبي المميز والتي يحكى لنا تراثنا الثقافي المميز وهو عنوان الهوية الثقافية للمرأة النوبية، وترى أن هذا الغزو الذى يتعرض له كافة المجتمعات الإنسانية ومنها المجتمع النوبي يقف حائلاً أمام كافة المحاولات التي تسعى للحفاظ على ما تركه لنا أجدادنا من عناصر ثقافية مميزة والتي اكتسبنا منها هويتنا وشخصيتنا النوبية على مدار العصور التاريخية السابقة".

بينما يرى الشاعر ميرغني ديشاب التأثير التكنولوجي مختلف تماماً عما ذكرته الدكتورة فكرية حيث يرى "أن ظهور الوسائل التكنولوجية المتنوعة والمتعددة بصورها المختلفة يمكن استخدامها بشكل إيجابي في الحفاظ على التراث النوبي وانتشاره، حيث يرى أنه يمكن إنشاء قنوات تلفزيونية فضائية للترويج عن العناصر التراثية النوبية، وأيضاً إنشاء الإذاعات الموجهة لنشر الثقافة النوبية، وتعليم الأجيال القادمة وتعريفهم تراثهم الثقافي ، وبالتالي يعتبر التكنولوجيا وسيلة هامة في الحفاظ على التراث الثقافي واستمراره في مواجهة التحديات التي يتعرض لها وتهدده وتسعى للقضاء عليه".

ويختلف الباحث النوبي سمير بوكاب مع ميرغني ديشاب حيث يرى أن "كثرة الفضائيات التي تسعى لطمس الهوية النوبية تعد من أهم التحديات التي تقف عائقًا أمام النوبيين في الحفاظ على تراثهم الثقافي، ويرى أنه لابد من وجود برامج ثقافية تسعى لنشر الثقافة النوبية داخل المناطق النوبية وخارجها، وهذا ما طلبه من الكثير من المسئولين في الإعلام السوداني وهذا ما يسعى سمير بوكاب لتحقيقه".

ويؤكد محمد الشريف أن "الإعلام الموجه ضد النوبيين هو أهم هذه التحديات التي تقابلهم في الحفاظ على تراثهم الثقافي، حيث يرى أن الإعلام من خلال البرامج التي تتجاهل الثقافة النوبية تؤدى إلى طمس هويتهم النوبية، وقد طالبوا كثيراً بعمل إذاعات باللغة النوبية موجهة للنوبيين لتعريف الشباب الحالي بتراثهم النوبي ولكن هذه المطالب تقابل بالرفض من جانب الحكومة السودانية مما يجعل النوبيين بأن هناك مخطط لطمس الهوية النوبية".

٦- مشروعات التنمية في النوبة

التنمية هي ضرورية من أجل الإنسان في كافة المجتمعات البشرية ، حيث تقوم الحكومات والمؤسسات بإقامة المشروعات التنموية التي تخدم أفراد المجتمع وتجعلهم يعيشون حياة أفضل لهؤلاء الأشخاص، إن التنمية والثقافة والإنسان, مفاهيم متكاملة, وهي المقومات الآمنة الراقية الأساسية لصناعة الحياة المتطورة, التي تقوم على وسائل وأهداف ولصناعة الرقي الإنساني المتمثل في الحضارة والتنمية هي وسيلة الحضارة وغايتها.

وللتنمية آثار إيجابية وآثار سلبية ، حيث نجد الآثار الإيجابية تهدف إلى الارتقاء بالمجتمع المحلى والنهوض بكافة الخدمات ، ولكن الآثار السلبية تتمثل في القضاء على بعض العناصر الثقافية المميزة في المجتمعات التي تتميز بخصوصية ثقافية تجعل لها تاريخ حضاري كبير مثل المجتمع النوبي.

والغريب عندما تتكلم عن مشروعات تنموية يرفضها أبناء المجتمع وهذا ما حدث في النوبة السودانية ، حيث نجد أن فكرة إقامة السدود داخل حدود المنطقة النوبية هي طمس لهويتهم الثقافية وهذا ما يؤكده النوبيين مراراً وتكراراً والدليل على ذلك رفضهم لإقامة سد جبار وسد دال في منطقتي السكوت والمحس ، بالإضافة إلى إقامة السدود المرفوضة من النوبيين وهناك مشروعات أخرى يرفضها المجتمع النوبي وهى التعدين العشوائي حيث يتم التنقيب عن الذهب في المناطق النوبية باستخدام مادة السيانيد والزئبق ، والسيانيد مادة مسرطنه والزئبق كذلك.

وهنا يرى مهندس مصطفى عبدالجليل شلبي أن « الحكومة السودانية تواصل سلوكها السلبى تجاه النوبيين ببناء السدود في مناطقهم، حيث داست على مواطنيها واسترخصت دماءهم، ومازال المواطن النوبي يرفض إقامة السدود والاحتجاج عليها بكافة الطرق والأشكال، وقابلت الحكومة هذا الرفض بتكوين ميلشيات للدفاع عن هذه السدود مما ادى إلى سقوط شهداء كجبار ومروى والشريك وفتحت أبواب السجون وبيوت الأشباح للتصدي للنوبيين، ولكن النوبيين صامدون رافعين شعار « مأساة عبود لن تعود» .

وهنا يرى الأستاذ الدكتور محمد جلال هاشم الذى قام بتأليف كتاب بعنوان «رسالة كجبار .. قضايا السدود بشمال السودان» حيث يؤكد في مقابلته مع الباحث على « تُرى ماذا يستفاد النوبي من سد كجبار بالشلال الثالث أو سد دال بالشلال الثاني أو سد الشريك في الشلال الخامس؟ إذا كان مصيرهم نفس مصير أهلنا في وادى حلفا منتصف الستينات من القرن الماضي حيث التشرد من الديار وترك الآثار وثقافتهم والإفراغ التام للمنطقة من السكان والقضاء عليهم وتشتيتهم والقضاء على تراثهم الثقافي المرتبط بالبيئة والنهر».

وانتقل رفض إقامة السدود من الأشخاص للمؤسسات حيث يقول الدكتور أبو ذر محمد على أن الكيان أصدر بيانات تؤكد رفض إقامة السدود في المناطق النوبية، حيث أصدر الكيان بيان بتاريخ ٥ مارس ٢٠١٦ والذى أكد فيه رفضه التام لإقامة السدود في منطقة دال ومنطقة كجبار رافعاً شعار (لا للسدود) وقد جاء البيان كالتالي «إلى الجماهير النوبية وجماهير المناطق المهددة بسدود الشمال، أنتم تعرفون جيداً بأن الكيان لم يدخر جهداً في شرح وتفسير موقفنا الرافض لهذه السدود مهما قدمت الحكومة من مبررات وإصرارها على قيام السدود، حيث لا تمتلك الحكومة دراسات علمية تقدمها للمجتمع المحلى والعالمي يوضح الاستفادة من هذه السدود ، بل هي تصريحات جوفاء بأنها سدود التنمية والأمن الغذائي وهى أكاذيب معروفة ، وكلنا نعلم أن الهدف الرئيسي من ذلك هو غرق الأراضي النوبية وأرض الحضارة الإنسانية والآثار النوبية والتاريخ النوبي العتيق».

ويقول الدكتور داؤود محمد داوود «أن الذين يريدون طردنا من بلادنا لا يملكون إحساساً بوطن ، إذ يمكنهم العيش في أي مكان كما تفعل الجراثيم متى وجدت بيئة متسخة، الذين يريدون طرد سادة البلد وهو الدخلاء لم يعجبهم اعتزاز النوبي بنفسه وبوطنه يريدون بلاداً بلا عزة شعب وشعباً بلا تاريخ، منذ آلاف السنين هنا جذورنا وصوت النهر وما علق في قلوبنا من طقوسنا وعاداتنا وتقاليدنا».

ويتضح مما سبق أن هناك رفض تام من جانب النوبيين لإقامة السدود كأحد مشروعات التنمية التي تقوم بها الحكومة السودانية في الولاية الشمالية وهى مقر

النوبيين، حيث تعلم النوبيين من درس الماضي عندما تم تهجير أبناء وادى حلفا في الستينيات من القرن العشرين وما نتج عن ذلك من طمس لتراثهم الثقافي حيث الباحث في التراث النوبي يجد أن المحور الرئيسي المكون للتراث النوبي هو نهر النيل وبالتالي إذا ابتعد النوبي عن النهر ضاع التراث واندثر ومن هنا جاءت العلاقة السلبية بين التراث الثقافي النوبي وبين فكرة إقامة السدود كأحد مشروعات التنمية في بلاد النوبة والتي تهدف لتوصيل الكهرباء والزراعة في المناطق النوبية.

وهنا يؤكد الإخباري الأستاذ زاهر أنه عند قيام الحكومة بإنشاء سد مروى وعدت سكان المنطقة بأشياء كثيرة مثل توفير الطاقة الكهربائية وزراعة مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية في مقابل تركهم مناطقهم الأصلية على ضفاف نهر النيل وبعد قيام السد لم يتم تحقيق أي وعد من وعود الحكومة، حيث نجد الكثير من المناطق لا يوجد بها كهرباء والأراضي ما زال «بور» لا يتم زراعتها لعدم توفير المياه كما قالت الحكومة».

أما الجانب الثاني من مشروعات التنمية التي يعانى منها النوبيين وهو البحث عن الذهب بطريقة غير علمية والتي يطلق عليها النوبيين «التعدين العشوائي»، حيث تأتى بعض الشركات التي تتفق مع الحكومة السودانية للتنقيب عن الذهب في المناطق النوبية وتستخدم مواد مسرطنة مثل السيانيد والزئبق.

وهنا يجب القول بأن التأثير يأخذ شقيق الأول هو تأثير مباشر على الإنسان النوبي، حيث إذا أردنا الحفاظ على التراث يجب المحافظة على حامل هذا التراث، فالقضاء على النوبي يعنى القضاء على تراثه ، أما الشق الثاني يتمثل في سرقة الآثار النوبية من جانب هذه الشركات أثناء عملية التنقيب، وهذا ليس رأى الباحث وإنما هو رأى الإخباريين في المنطقة النوبية.

وتأكيداً على ما سبق يقول الإخباري معاوية «أن استخدام السيانيد والزئبق في عملية البحث عن الذهب يؤدى لإصابة السكان بالسرطان، والدليل على ذلك إصابة أكثر من مائة شخص في مناطق النوبة بالسرطان ، حيث يوجد ثلاث شركات رئيسية (سودانية– هولندية– شركة متعددة الجنسيات)، والأخطر من ذلك أن إحدى

هذه الشركات كانت تبحث عن الذهب داخل نهر النيل حيث إلقاء مخلفات التنقيب في مياه نهر النيل تجعل المياه مسرطنة وهذا ما رفضه النوبيون وقاموا بإجراءات تصعيدية مثل الاحتجاجات وعمل توقيعات شعبية للمعتمد، ونتج عن ذلك إلغاء التصريح الخاص بهذه الشركة، وأيضاً من أوجه المعارضة قامت الأسر في منطقة المحس بغلق الطريق الرئيسي وغلق المدارس وعد ذهاب الأطفال للمدارس حتى تم طرد إحدى شركات التعدين العشوائي في منطقة دلقو التابعة للمحس، ويقول الإخباري أنه تم الاتفاق مع شركة «دويشاب» وهى أكبر شركة موجود في النوبة تبحث عن الذهب على المراقبة الشعبية لأعمال الشركة في أي وقت لحماية الناس وعدم إلقاء المواد المسرطنة في نهر النيل».

٧- عدم وعى أفراد المجتمع بالتراث

من أهم التحديات التي تواجه الحفاظ على التراث هو عدم وعى أفراد المجتمع بأهمية هذا التراث، ويرى الباحث أن هذه النقطة من أخطر ما يهدد أي تراث خاص بأي مجتمع له تراثه المميز وليس فقط المجتمع النوبي، فبداية خطوات المحافظة على الشيء معرفة أهميته لكى يكون هناك دوافع تجبر الشخص على المحافظة على هذا الشيء وحمايته من الاندثار، أما إذا كان هناك عدم وعى وعدم تقدير لأهمية هذا التراث فإنه سوف يندثر ويختفى بسرعة وسهولة في ظل التحديات والتغيرات التي تطرأ على المجتمع.

وهذا ما يؤكده المهندس سيد عكاشة* حيث يقول " أن الناس في النوبة مش مهتمة بغير أكل العيش وبتبحث عن شغل وخلاص، وميهماش التراث وهذا يؤدى إلى عدم وعيهم بأهمية الموروثات الثقافية والتاريخية التي تركها لنا الأجداد وبالتالي عدم الوعى يؤدى إلى عدم المحافظة على تراثهم ، وهذا من أهم العقبات التي تواجهنا في الحفاظ على تراثنا الثقافي".

وتقول الدكتورة عفاف سليم أن " قلة وعى أفراد المجتمع النوبي يتضح من خلال تركهم لتراثهم الثقافي وعدم التمسك به والدليل على ذلك عدم استخدام النساء المصنوعات اليدوية البسيطة التي مازالت موجودة في كل بيت نوبي ومنها على

سبيل المثال التخلي عن القسيبا التي كانت تستخدم في تخزين الحبوب وهى رمز للثقافة المادية لدى النوبيين في وقت سابق ، حيث تم استبدال ذلك بالبرميل البلاستك والأشياء الأخرى، وتقول الإخبارية أن الأغرب من ذلك هو التخلص من المنتجات اليدوية في البيوت النوبية".

ويتساءل الدكتور محمد جلال هاشم لماذا لا يزرع النوبي أمام بيته نخلة باعتبارها رمز للنوبيين ثقافي واجتماعي واقتصادي؟ وهذا دليل على عدم وعى كامل من كثير من الأفراد للحفاظ على تراثهم الثقافي" ، ويعبر هنا الإخباري عن عدم وعى النوبيين بتراثهم بقولة " النوبيين ظاهرياً متمسكين بالتراث النوبي، أما من الناحية الواقعية والعملية فهم يتخلون عن تراثهم النوبي، والدليل على ذلك ترك الكثير من العناصر الثقافية مثل اللغة والزى النوبي والأطعمة النوبية والمسكن النوبي وغيرها من الممارسات الثقافية النوبية، والاكتفاء ببعض الممارسات الثقافية في المناسبات والاحتفالات والمهرجانات الثقافية".

وتتفق معه في ذلك الإخبارية أمينة دقنه حيث تقول " أن النوبيين مسئولين مسئوليه كاملة في عملية الحفاظ على تراثهم الثقافي وخاصاً المرأة النوبية ، حيث يجب على المرأة بحكم تواجدها داخل المجتمع لفترات أطول من الرجال، وتقع مسئولية تعليم العادات والتقاليد والمعتقدات وغيرها من عناصر التراث للأطفال من خلال ممارسات الحياة اليومية، ولكن للأسف نتيجة لضغوط الحياة اليومية انشغل كل واحد في حياة أبنائهم وتعليمهم، واكتفوا بأيام المهرجانات والاحتفالات الثقافية لتعريف الأجيال الجديدة بتراثهم الثقافي وهذا يتم بشكل سطحي".

ويرى الإخباري الأستاذ الفاتح السيد أن " النوبيين مقصرين في الحفاظ على تراثهم الثقافي ، والدليل على ذلك أن كثير منهم لا يعلم شيء عن ثقافتهم نتيجة لأسباب كثيرة منها الاحتكاك الثقافي والتطور التي لحق بهم بسب التعليم والتكنولوجيا وغيرها من وسائل العولمة ".

ويتعدى الأمر لأبعد من ذلك وهو محاربة النوبيين لتراثهم الثقافي حيث يقول الإخباري هشام عنتر أن " الأسر النوبية تقوم بمحاربة أولادها التي تريد أن تتعرف

على التراث النوبي والدليل على ذلك أن الطفل الذى يريد أن يتعلم اللغة النوبية يقوم الأب بضربه، في محاولة لعدم تعلم الأطفال اللغة النوبية حتى لا يتعرضوا للضرب في المدارس".

ويقول الإخباري الحاج محمد أن موت الجيل الكبير من الأباء والأجداد والتغيرات التي طرأت علينا أدت إلى عدم تعليم الأجيال الحالية لتراثنا الثقافي وعدم وعينا بأهمية هذا التراث والتي تنتج عنه الاستسلام وعدم التصدي ومواجهة التحديات التي تهدد تراثنا الثقافي كل هذا أدى إلى ضياع الكثير والكثير من عناصرنا الثقافية المميزة".

٨- عدم الاهتمام من جانب المسئولين للحفاظ على التراث

عدم وعى المسئولين بأهمية التراث الثقافي لا يقل خطورة عن عدم وعى أفراد المجتمع المحلى فكليهما كارثة تقع على التراث الثقافي، إذ نجد أن صاحب التراث ليس لديه وعى بأهمية فما بالك بالمسئول عن هذا التراث وما بين ذلك وذلك ضاع التراث النوبي.

فلا بد من الاهتمام الكافي من جانب المسئولين سواء في وزارة السياحة والآثار والحياة البرية في السودان، وتقع المسئولية أيضاً على مسئولين الولاية الشمالية التي تقع فيها نطاقها كافة الأراضي النوبية، فبالتالي هي مسئولية جماعية بين الجهات الرسمية الحكومية تجاه المحافظة على التراث النوبي.

فنجد أن محاولة الحفاظ على التراث النوبي هي محاولات فردية من أشخاص أدركوا مدى الخطر القادم على تراثهم وتراث أجدادهم، فقاموا ببعض المحاولات لحفظ ما تبقى منه مثل تجربة سمير بوكاب التي قامت من أجل تحقيق هدف واحد وهو تشجيع النساء لإحياء الصناعات اليدوية، وأيضاً تجربة مجذوب في منطقة عبرى حيث شيد فندق صغير على ضفاف نهر النيل وفقاً لتصميم البيت النوبي، حيث يحتوى على الصناعات اليدوية التي كان يتميز به النوبيين في الماضي وغيرها من عناصر الثقافة المادية، بالإضافة لتجربة محاسن دهب في إعادة تصميم الجرجار النوبي وهو الزى النسائي المميز الذى له دلالاته الثقافية والاجتماعية لدى النوبيين.

كل ذلك هو محاولات فردية بجهود أشخاص ينفقون عليها من أموالهم الخاصة، ولا يوجد تخطيط ولا استراتيجيات واضحة من جانب الحكومة والمسئولين في الولاية الشمالية تهدف لحماية الموروثات الثقافية للنوبيين والتي تمثل جزء كبير من التاريخ الثقافي للسودان بأكمله، وهذا ما أكده الإخباريين في مجتمع الدراسة، أثناء قيام الباحث بدراسته الميدانية.

حيث يؤكد المهندس محمد عبدالعزيز أن « الحكومة تقف عائقاً أمام ممارسة النوبيين لعاداتهم وتقاليدهم ، حيث عندما نريد أن نقوم مهرجاناً ثقافيا وهو إحدى أليات الحفاظ على تراثنا الثقافي نجد معارضة من جانب المسئولين عن الأمن، على الرغم من أن هذه المهرجانات تقام في النادي النوبي والذى يحضره النوبيين فقط ، والنوبي معروف إنه مسالم لا يريد أن يفتعل مشاكل للدولة ، ولكن تعنت الدولة تجاه النوبيين يجعلهم يعتقدون أن هذا أمر مخطط من جانب الحكومة السودانية للقضاء على النوبيين وطمس هويتهم الثقافي، ونقابل بالرفض عند إقامة أي احتفالات وإذ تمت الموافقة فتكون بعد عناء ومجهود شديد».

وتأكيداً على كلام الإخباري فإن الباحث قد حضر بالفعل مع الإخباري كافة الإجراءات الخاصة بإقامة اليوم الثقافي النوبي للكيان النوبي الجامع، والتي عقد في ٢٧يناير ٢٠١٧ في مقر النادي النوبي بالخرطوم، حيث أن الإجراءات أخذت أكثر من عشرين يوماً من أجل الموافقة على إقامة هذا المهرجان.

ويؤكد هذا الإخباري المهندس سيد عكاشة رئيس نادى بوهين النوبي حيث يقول « أن الحكومة تحارب الخصوصية الثقافية للنوبيين، والدليل على ذلك وضع العقبات والعراقيل أمام الممارسات الثقافية للنوبيين سواء كان على مستوى المؤسسات مثل الاحتفال باليوم الثقافي للكيانات والجمعيات النوبية المختلفة أو على مستوى الأفراد مثل إقامة ندوات، ونتيجة للضغوط التي يمارسها المسئولون من جانب الحكومة السودانية تحول نادى بوهين من نادى كان يناقش فيه كافة القضايا النوبية ومنها المحافظة على التراث الثقافي النوبي والمشكلات اليومية للنوبيين إلى مكان لشرب الشيشة والشاي ولعب الدومينو، والحكومة تريد ذلك وإحنا كنوبيين

لازم نخضع لأمر الحكومة عشان من سمات النوبي هي السلمية وعدم الدخول في مشكلات وربما هذا تقصير منا تجاه تراثنا وحضارتنا الكبيرة «.

وهذا ما يشير إليه أيضاً محمد صالح حيث يقول أن « محاربة المسئولين للنوبيين وثقافتهم وتراثهم هو اتجاه مخطط من زمن طويل يهدف إلى القضاء على النوبة ، لأنها هي العائق الوحيد أمام الحكومية في تعريب الدولة كلها فهم بذلك يريدون القضاء على كل شيء متعلق بالنوبيين، والدليل على ذلك تهميش المناطق النوبية وعدم قيام أي مشروعات خدمية أو ثقافية تهدف الحفاظ على الإنسان النوبي والتراث النوبي، فكل هم الحكومة وهو تشتت النوبيين في أماكن متفرقة سواء داخل السودان أو خارجها وبذلك يحققوا هدفهم في التخلص من النوبيين ، وكل ذلك دليل على عدم وعى المسئولين بأهمية التاريخ الثقافي النوبي داخل السودان بل داخل القارة الإفريقية كلها».

ويقول المهندس مصطفى عمر أن "عدم وعى المسئولين بأهمية التراث النوبي يؤدى إلى ضياع هذا التراث، والدليل على ذلك هو عدم وجود مشرعات ثقافية تهدف لحماية الصناعات اليدوية وتشجيعها وتسويقها، أو الحفاظ على الجرجار النوبي بالعكس يتم محاربة ذلك والتعرض للنقد من جانب المسئولين وأفراد المجتمع السوداني".

وتؤكد د فكرية أبو اليزيد أن "المؤسسات الحكومية في السودان ترفض وتمنع ارتداء المرأة للزي النوبي المميز وهو الجرجار، على عكس المرأة في النوبة المصرية ، فهنا يجب أن ترتدى العباية السوداني وتذهب بها إلى العمل، أما إذا ارتدت المرأة الجرجار النوبي تتعرض للجزاء بالإضافة للنقد الموجه لها من جانب زملاء العمل، وهذا يدل على عدم وعى بأهمية هذا التراث سواء من جانب المسئولين أو من جانب أعضاء المجتمع السوداني".

ويقول الأستاذ الدكتور محمد جلال هاشم "أن الإيديولوجية الخاصة بالسلطة في السودان هي العروبة والإسلام، وبالتالي طمس أي هوية ثقافية لا تتفق مع العروبة والإسلام وهذا ما يحدث مع الهوية الثقافية النوبية، ويرى أن الإجراءات

الأمنية الصارمة تقف أمام ممارسة الأنشطة الثقافية لإحياء التراث النوبي، والقهر والظلم التي يتعرض له النوبيون في السودان يجعلهم عازفين عن التمسك بهويتهم الثقافية، واتجاه المثقفين النوبيين بعد التهجير للانضمام لحزب البعث وهو الحزب الذى يدعو للعروبة وهذا ما أطلقت عليه "الانتحار الثقافي أو التخلي الثقافي"، كل هذا أدى إلى ضياع التراث النوبي".

ويرى الإخباري الأستاذ حسونه أن " السلطات الحاكمة في السودان لها مصالح خاصة في القضاء على النوبة والنوبيين والدليل على ذلك اعتراف حسن الترابي الذى ينتمى للإخوان المسلمين في قناة الجزيرة بأن الهدف من بناء السدود في السودان هو القضاء على حضارة الأصنام ويقصد بها الحضارة النوبية، وهذا الحديث قد شاهده وسمعه كل أبناء النوبة، مما جعلهم يدركون أن هناك مخطط لدى الدولة للقضاء عليهم، وهذا دليل على عدم وعى المسئولين بأهمية التراث النوبي والحضارة النوبية".

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن محاربة الدولة السودانية للخصوصية الثقافية للنوبيين هو نتاج لعدم الوعى الكافي من جانب المسئولين بأهمية هذا التراث ، والتي يجب الحفاظ عليه لأنه جزء هام من التاريخ الثقافي السوداني، ويرى الباحث أن هذه الممارسات التي يمارسها المسئولون على النوبيين في الأنشطة الثقافية هو إنذار خطر على الوضع في السودان، قد يؤدى إلى تمرد النوبيين نتيجة لشعورهم بالظلم والاضطهاد من الحكومة السودانية.

٩- عدم قيام المنظمات النوبية بدورها في الحفاظ على التراث الثقافي

لقد تعددت وتنوعت المنظمات النوبية داخل المناطق النوبية وخارجها، تقوم من أجل تحقيق هدف واحد يتمثل في إحياء التراث الثقافي النوبي وهذا هو الهدف المعلن من جانب المنظمات والكيانات النوبية المتعددة والمتنوعة، حيث نجد أن هناك ما يقارب أكثر من أربعين منظمة نوبية تعمل في هذا المجال، ولكن الملاحظ من خلال الدراسة الميدانية أن هناك قليل جداً منهم من يعمل من أجل تحقيق هدفه وهو إحياء التراث ، ولكن الكثير منهم يعمل من أجل أغراض أخرى متعددة.

وهنا يقول الإخباري سلاف الدين صالح أن المنظمات النوبية بدأت في الظهور والازدهار في عام ٢٠٠٤ ، ويقول بأن هنا حكاية متداولة بين النوبيين حيث ارتباط الحفاظ على التراث النوبي بسيدنا موسى حيث تقول الحكاية أن « قال شخص بأن النوبيين هم من قوم سيدنا موسى عليه السلام والدليل على ذلك هو وجود اسم «صافوره» وهو اسم زوجة سيدنا موسى وهذا الاسم موجود عند النوبيين فقط، ويقول أن عقاب قوم سيدنا موسى كان لمدة أربعين عام وأيضاً عقاب النوبيين بإبعادهم عن أرضهم هو أربعين عام من عام ١٩٦٤- ٢٠٠٤ حتى تهجير النوبيين في عام ١٩٦٤، وبالفعل ظهرت حركات كبيرة تسعى لعودة النوبيين لمناطقهم الأصلية على ضفاف نهر النيل» ويؤكد سلاف الدين أنه بالفعل في عام ٢٠٠٤ ظهرت الكثير من المنظمات النوبية التي تسعى لإحياء التراث النوبي «.

ويرى الأستاذ صالح محمد صالح أن «المنظمات النوبية لها أهداف أخرى غير إحياء التراث النوبي والدليل على ذلك عدم معرفة الكثير من النوبيين أسماء هذه المنظمات، والسبب في ذلك من وجه نظري بعد هذه المنظمات عن النوبة فنجد أن كل المنظمات التي يطلق عليها منظمات نوبية تكون مقرها في العاصمة الخرطوم والمسافة بين المناطق النوبية والخرطوم كبيرة جداً حيث تصل ٧٠٠كم، فبالتالي هذا البعد أثر على وضع هذه المنظمات في المنطقة النوبية ، بالإضافة إلى ذلك عدم وجود خطط واضحة من جانب هذه المنظمات تجاه المجتمع النوبي».

ويرى الدكتور على إبراهيم الضو أن «هذه المنظمات اشتغلت بمشروعات التنمية أكثر من الثقافة ، والدليل على ذلك المنظمة النوبية لإحياء التراث والتنمية والتي يجب أن تعمل في ميدان التراث والتنمية نجدهم يعملون بالمشروعات الصحية مثل الكشف على القصور البصرى لدى تلاميذ المدارس، أما إحياء التراث فأنشطتهم قليلة جداً».

ويقول الدكتور محمد جلال هاشم أن المنظمات النوبية اشتغلت بالضوضاء والمظاهر والأضواء أكثر من عملها الميداني ، فلا نجد لهم قاعدة جماهيرية في المناطق النوبية ، والدليل على كلامي عدم وضوح الرؤية لدى الكثير من المنظمات،

وبعض المنظمات تعمل بشكل سياسي أكثر وهذا دليل على ضعف هذه المنظمات».

وهنا تؤكد شذا إسماعيل دهب « أن المنظمات النوبية ليس لها دور على الإطلاق في مجال إحياء التراث النوبي لأنها تعمل في مجال الخدمات والمساعدات التي تقدم للأسر الفقيرة ، والخدمات الصحية والعلاجية ولكن على مستوى التراث الثقافي محدود».

١٠- عدم وجود مشروعات للحفاظ على التراث الثقافي

تقع مسئولية الحفاظ على التراث الثقافي النوبي على عاتق المؤسسات والمنظمات النوبية بالمشاركة مع منتظمات المجتمع المدني التي يشرف عليها الإدارات الحكومية في الولاية السياحة بالسودان مثل الوزارات المعنية بذلك كوزارة السياحة والآثار والحياة البرية، لأن الحفاظ على هذه الموروثات تعمل على تنشيط السياحة والتي يستخدم عائدها في إقامة المشروعات التنموية التي تخدم أبناء المجتمع.

فنجد الكثير من المنظمات الدولية التي تسعى لحماية التراث الثقافي بكافة أنواعه وأشكاله في مختلف المجتمعات الإنسانية، وأهم هذه المنظمات هي اليونسكو التي تهدف لحماية التراث الثقافي المهدد بالاندثار مثل الآثار التي تتعرض لعوامل بيئية أو نتيجة غمرها بالمياه كما حدث في النوبة السودانية عند بناء السد العالي في عام ١٩٦٤، ولكن هذا على مستوى نوع من التراث وهو الآثار والممتلكات الثقافية، ولكن التراث التي يتحدث عنه الباحث وهو الثقافة المادية التي يستخدما الإنسان في حياته اليومية مثل المسكن والملبس والصناعات اليدوية والأطعمة وغيرها من العناصر الثقافية التي تستخدم في ممارسات الحياة اليومية.

ومن أهم التحديات التي تواجه الحفاظ على التراث الثقافي هو عدم وجود مشروعات تحتوى هذه العناصر الثقافية وتكون بمثابة وعاء لحماية التراث الثقافي من الاندثار، وهذا المشروعات الثقافية لابد أن تكون تحت إشراف المؤسسات الحكومية والمنظمات النوبية بالمشاركة مع أعضاء المجتمع المحلى فهي مسئولية متكاملة بين جميع الأطراف

ويرى أعضاء المجتمع النوبي أن عدم وجود مشروعات ثقافية لحماية تراثهم الثقافي هو امتداد لممارسات التي تقوم بها الحكومة تجاههم للقضاء على تراثهم الثقافي وهويتهم الثقافية بصفة عامة ، وهذا يتضح بشكل كبير في المقابلات التي أجراها الباحث مع الإخباريين.

حيث يقول الإخباري مصطفى محمد صاحبي أن «عدم إقامة أي مشروعات ثقافية تحمى تراثنا الثقافي هي خطة موجهه من جانب الحكومة للقضاء علينا، وهى امتداد لمسلسل الإهمال الذى يتعرض له النوبي في حياته اليومية، فالدولة لا تهتم بإنسانيتنا وبالتالي أن لا تهتم بتراثنا، وبعدين هي بتهدف للقضاء علينا بكل الطرق».

ويقول الإخباري محمد حسن أن «الدليل الواضح على إهمال الدولة لنا وتراثنا هو رفض أي مشروع تقدمه المنظمات النوبية لإحياء التراث الثقافي النوبي، حيث حاول البعض من النوبيين إنشاء متحف للتراث النوبي في وادى حلفا فطالبوا من وزير السياحة والآثار وبالمناسبة كان نوبي أن يأخذوا آثارهم وتراثهم من المتحف القومي في السودان إلى متحفهم في وادى حلفا، ولكن تم رفض الطلب بسبب أن ٨٠٪ من الآثار الموجودة في المتحف القومي السوداني هي آثار نوبية».

ويرى المهندس سيد عكاشة رئيس نادى بوهين أن « وقوف الدولة ضد أي مشروع يهدف لتوثيق وجمع التراث النوبي ، يعكس لنا طبيعة ما وصلت إليه الثقافة النوبية من اضطهاد ومحاربة من كافة الجهات السودانية «.

ويرى أسعد عبد الرحمن أن « عدم وجود التمويل اللازم لإقامة المشروعات الثقافية لحفظ التراث الثقافي النوبي من أهم المعوقات التي تقف أمام إقامة مثل هذه المشروعات، وخاصة إن إقامة مشروع ثقافي يتطلب الجهد والمال الكثير والإدارة الجيدة والإشراف من جانب المنظمات والمؤسسات المختلفة وهذا غير متوافر».

ويقول الشاعر النوبي ميرغني ديشاب « أنه قدم تصور لمشروع ثقافي يهدف لإحياء الصناعات اليدوية في المناطق النوبية ، حيث كانت أهم محاوره تقوم على بناء مركز للصناعات اليدوية في منطقة وادى حلفا ويتكون من دورين ، حيث يكون الدور الأول عبارة عن حوش كبير تتجمع فيه النساء وتقوم بعمل هذه الصناعات

والدور الثاني لإدارة المركز والتسويق، ثم بعد الانتهاء من كتابة المقترح قدمته لمعتمد وادى حلفا في عام ٢٠١٠ ولكن كان مصيره « درج المكتب» «.

كما يرى الإخباري بابكر محمد أن « النوبيين لهم دور في عدم إقامة المشروعات الثقافية في مناطقهم، حيث عدم وجود الوعى الكافي لدينا يجعلنا منشغلين بحياتنا اليومية، وعدم التفكير في حماية تراثنا الثقافي».

١١- القضاء على اللغة النوبية

اللغة هي حلقة الوصل بين الشعوب والمجتمعات الإنسانية ، وهى عنوان للهوية الثقافية لأى حضارة إنسانية، فإذا تم القضاء على اللغة تم القضاء على المجتمع بأكمله ، وهذا ما يشغل بال النوبيين، فالتحديات التي تواجههم في الحفاظ على أهم عنصر ثقافي وهو اللغة النوبية تجعلهم يشعرون بالخطر القادم على تراثهم.

على الرغم من أن اللغة عنصر ثقافي غير مادى ولكن له علاقة وثيقة بالحفاظ على التراث الثقافي المادي، فمعرفة العناصر الثقافية المادية بسماتها الأصلية في اللغة النوبية يساعد على استمرارها وتواجدها في ظل التحديات الموجودة داخل المجتمع النوبي.

ويؤكد ذلك الأستاذ الدكتور مصطفى عبده أن «الحفاظ على اللغة النوبية هي بداية الحفاظ على التراث الثقافي النوبي، لأن اللغة النوبية هي عنوان الثقافة النوبية فإذا حافظ النوبيون على لغتهم سوف يستطيعون الحفاظ على تراثهم بسهولة «.

ويرى البروفسور على عثمان* أن "السر وراء بقاء النوبيين حتى يومنا هذا هو التمسك باللغة النوبية، فالنوبي يعنى اللغة النوبية، وعلى الرغم من التحديات الكثيرة التي تواجهنا كنوبيين في السودان إلا أننا مازلنا نحافظ على لغتنا".

كما يرى الدكتور يوسف خميس أبو رفاس أن الوضع التي وصلت إليه اللغة النوبية خطير للغاية، حيث اندثرت كثير من مفردات اللغة وعدم تعليم الكبار الأجيال الحالية للغة النوبية يؤدى إلى ضعف مكانة اللغة لدى النوبيين ، وأنها سوف تندثر في القريب العاجل".

ويرى نجم الدين الشيخ أن "الحفاظ على اللغة النوبية من أهم أليات الحفاظ على التراث الثقافي النوبي كله، فإذا اندثرت اللغة النوبية اندثر التراث النوبي".

وبالتالي نتيجة لشعور النوبيين بالخطر على لغتهم النوبية قاموا بخطوات جادة في الحفاظ عليها وهذا ما يؤكده محمد عوض حيث قام برعاية الطلاب النوبيين لعمل رسائل علمية في مركز يوسف الخليفة لكتابة اللغات بالخط العربي وكانت أول رسالة تناقش بعنوان " دور الأمثال الشعبية في الحفاظ على اللغة النوبية "أطروحة ماجستير وقد حضر الباحث هذه المناقشة أثناء فترة تواجده في السودان في ٦ يناير ٢٠١٧ في جامعة إفريقيا العالمية ".

ويؤكد ذلك عبد الرحمن خيرى أن " من أهم الخطوات التي قمنا بها هي مخاطبة المسئولين في الولاية الشمالية باعتبارها منطقة نوبية بتدريس اللغة النوبية في مراحل التعليم الأساسي" ، وهذا ما أكده محمد عوض أيضاً للباحث أثناء تواجده في معهد البحوث والدراسات والإفريقية جامعة القاهرة.

بينما ينتقد البروفسور محمد جلال هاشم أفراد المجتمع النوبي بقوله "أن عدم رغبة النوبيين في الحفاظ على تراثهم الثقافي يدل على عدم الاهتمام بدراسة اللغة النوبية، حيث قمت بعمل بفصول لتدريس اللغة النوبية في النادي النوبي بالخرطوم ولم يأتي أحد، وهذا دليل على عدم الوعى بأهمية تراثهم الثقافي".

ويستكمل حديثه قائلاً "أن الكثير لا يتكلم اللغة النوبية حتى في القرى النوبية، بينما اتجه الناس لتعليم أولادهم اللغة العربية وهى لغة المدرسة"

ويتفق الباحث مع البروفسور محمد جلال هاشم، حيث أثناء دراستي الميدانية أتضح أن الكثير من الشباب لا يعرفون اللغة النوبية، وتخطى الأمر ذلك حيث نجد المسئولين في المنظمات والجمعيات التي تسعى للحفاظ على التراث النوبي كاللغة لا يتحدثون ولا يعرفون اللغة النوبية، والدليل على ذلك عندما تم إجراء مقابلة مع أحد الشخصيات الهامة في جمعية دنقلا للثقافة والتراث النوبي اكتشفت أن زوجته نوبية ولا تتحدث اللغة النوبية ولا تعرف عنها شيء، فإذا كان هذا حال الأم وزوجة الرجل المهم فما بالك من الأشخاص العاديين في المجتمع النوبي.

المحور الثاني :- كيفية التغلب على هذه التحديات

في المحور السابق تم عرض وشرح التحديات التي تواجه النوبيين في الحفاظ على تراثهم، حيث يرى النوبيين أن أهم التحديات تمثلت في :-

وبالتالي كان يجب على أفراد المجتمع النوبي السير في خطوات ثابتة ومهمة نحو الحفاظ على تراثهم الثقافي المهدد بالاندثار والضياع ويمكن تلخيص هذه الخطوات والمقترحات في النقاط التالية :-

(١) نشر الوعى الثقافي لدى النوبيين بأهمية التراث

حيث يجب توعية الجيل الجديد من النوبيين بأهمية هذا التراث وكيفية المحافظة عليه، ومعرفتهم بالتاريخ الثقافي لهذه الحضارة النوبية العظمية ، لكى يشعروا بالخطر التي يهدد ثقافتهم لابد من مدى إدراكهم ووعيهم بأهميته.

وهناك أليات لنشر الوعى الثقافي تتمثل في :-

١- عمل برامج تلفزيونية تتحدث عن النوبة والحضارة النوبية على مدى العصور المختلفة، ودور هذا الحضارة في التاريخ السوداني وتاريخ القارة الإفريقية.

٢- إنشاء وسائل إعلامية سواء كانت تلفزيونية أو إذاعة موجهه للأطفال النوبيين تحثهم على الحفاظ على تراثهم الثقافي وأهميته.

٣- التوعية بالجوانب الإيجابية من التراث الثقافي، وكيفية استخدامه في تنمية المجتمع النوبي سواء كان ذلك عن طريق السياحة الثقافية وغيرها.

٤- عمل مسابقات وجوائز للنساء في تصنيع المشغولات اليدوية النوبية.

٥- إقامة الندوات التي تهدف لشرح أهمية الحفاظ على التراث الثقافي النوبي.

٦- إقامة المنتديات والأنشطة الثقافية النوبية للتواصل مع الشباب لزيادة توعيتهم بتراثهم الثقافي.

٧- تركيز التوعية على المستهدف من التراث، فعلى سبيل المثال التوعية بأهمية الصناعات اليدوية لابد أن توجه للمرأة النوبية لأنها هي التي تقوم بهذه الصناعة.

٨- التركيز على فائدة التراث في الحياة اليومية فعلى سبيل المثال الصناعات اليدوية لأبد من توضيح الآثار الصحية الجيدة لتلك المصنوعات، في مقابل ذلك توضح الأضرار التي تنتج عن استخدامات المنتجات الأخرى التي تتعارض مع البيئة.

٩- القيام بالأنشطة الخارجية لنشر الثقافة النوبية عن طريق المهرجانات والاحتفالات الثقافية والمشاركات الخارجية.

(٢) الحفاظ على اللغة النوبية

اللغة لدى النوبيين هي عنوان التراث، وهى الحياة بالنسبة لهم وبالتالي أهم ما يشعر به النوبيين بالخطر هو القضاء على اللغة النوبية، حيث دفعهم الشعور بالخطر للسير نحو الحفاظ عليها من الاندثار، فالنوبي يعنى اللغة النوبية فإذا ضاعت اللغة النوبية تم القضاء على الإنسان النوبي والحضارة النوبية

أليات الحفاظ على اللغة النوبية تمثلت في الآتي:

١- لابد من إقناع الأجيال الجديدة بأهمية اللغة النوبية ودورها في الحفاظ على التراث الثقافي والهوية الثقافية والشخصية النوبية، وهناك طرق كثيرة لتحقيق ذلك ومنها طريقة استخدام الباحث في التراث النوبي سمير بوكاب حيث يقول للباحث «أنا استخدم وسيلة هامة في إقناع الناس بأهمية اللغة في ظل التغيرات والعولمة التي توصلت لمجتمعنا، حيث أعطيت مثال أن الشخص عندما يموت ولا يعلم غير اللغة النوبية فإنه سوف يحاسب بها وبالتالي هناك ملائكة تتحدث باللغة النوبية، إذاً هي لغة ربانية وهى ما جعل الكثير من النوبيين يهتمون باللغة النوبية».

٢- يتم إقامة ورش عمل لتعليم اللغة النوبية وهذا ما حدث بالفعل ، حيث كافة المنظمات النوبية تهتم بتعليم اللغة النوبية ، وقد قام أيضاً البروفسور محمد جلال هاشم بعمل فصول لدراسة اللغة النوبية في النادي النوبي بالخرطوم.

٣- المطالبة بتدريس اللغة النوبية في المدارس الموجودة بالمناطق النوبية.

(٣) العودة الطوعية

ويقصد بها عودة النوبيين إلى مناطقهم الأصلية قبل التهجير في عام ١٩٦٤م عندما تم بناء السد العالي، حيث الحنين لأرض الأباء والأجداد هو من يشغل بال النوبيين، وبالتالي حدث في السنوات الأخيرة الرجوع مرة أخرى لمناطقهم الأصلية وهذا ما أطلق عليه بالعودة الطوعية، ولكن هنا يشير كثير من الإخباريين في وادى حلفا أنه في بداية العودة الطوعية حدث تصادم بين الأسر النوبية التي رفضت أن تهاجر وتترك بلادها في ذلك الوقت والتي بلغ عددها ٥٢٥ أسرة نوبية ظلت في منطقة وادى حلفا وبين الأسر المهجرة، حيث اتهمت الأسر التي هاجرت بالخيانة لأنها استسلمت للتهجير بينما صمدت الأسر ٥٢٥ والتي كانوا يطلقوا عليهم ومازال حتى الآن لقب « المقيمين» ، ولكن مع مرور الوقت ذابت هذه الشوائب بين النوبيين وأصبحوا أخوة كما كانوا.

(٤) رفض إقامة السدود في المناطق النوبية

إن إقامة سد في بلاد النوبة يعنى الكارثة بالنسبة لهم، حيث يترتب على ذلك تهجيرهم من مناطقهم الأصلية التي بها تراثهم وحضارتهم وتاريخهم ، وبالتالي بناء السد يعنى ضياع التراث ، وقد تعلم النوبيون من الدرس القاسي عند تهجيرهم أثناء بناء السد العالي، وهذا ما يجعلهم على إستعداد دفع الغالي والنفوس والأرواح في مقابل عدم بناء السد وهذا ما حدث بالفعل في ١٣-٦-٢٠٠٧ م عندما قامت مظاهرات نوبية لرفض إقامة سد كجبار وسد دال حيث تم قتل أربع أشخاص من النوبيين في تلك المظاهرة، ويتم إقامة احتفال تأبين سنوي في نفس التاريخ من كل عام في المنطقة النوبية لهؤلاء الشهداء.

وهناك طرق أخرى سلكها النوبيين لرفض إقامة السدود في مناطقهم، حيث تم تشكيل لجان مناهضة السدود في عام ١٩٩٥ وكانت مقرها الخرطوم لثقلها الإعلامي في السودان، وكان هدف هذه اللجان هو رفض إقامة السدود بالنوبة ، ومثلت كافة القرى النوبية في تلك اللجان والبالغ عددها ٤٤ قرية حيث يوجد عدد

اثنين ممثلين للقرية في هذه اللجان واحد في اللجنة الرئيسة في الخرطوم والثاني في اللجان الفرعية في المناطق النوبية.

(٥) دور المثقفين النوبيين في الحفاظ على التراث الثقافي

يرى البروفسور محمد جلال هاشم أن المثقفين لابد أن يكون لهم دوراً كبيراً في التصدي للخطر الواقع على تراثنا الثقافي ، حيث يرى أن دورهم يتمثل في كتابة المقالات والأبحاث التي تشجع أفراد المجتمع للحفاظ على تراثهم الثقافي النوبي، بالإضافة لذلك هناك دورًا أخر للمثقفين وهو تحليل وتوصيف ظاهرة التخلي عن التراث الثقافي بموضوعة وإيجاد حلول لها ومعرفة الأسباب التي أدت لذلك.

بينما يرى الباحث النوبي سمير بوكاب أنه لأبد من استغلال الميديا في توعية الشباب النوبي، ونزول المثقفين والشخصيات النوبية التي يثق بها أفراد المجتمع النوبي لأرض الواقع في المناطق النوبية وتوعيتهم بالحفاظ على التراث، وهذا ما حدث في تعريف الناس بأخطار بناء السدود في المناطق النوبية وأضرارها على التراث الثقافي النوبي بل وعلى الإنسان النوبي نفسه، وذلك عن طريق عقد ندوات لكافة طوائف المجتمع من شباب ونساء وأطفال وشيوخ.

وخلاصة القول يجب أن يتحالف النوبيين لمواجهة التحديات التي تواجههم في الحفاظ على تراثهم، والسعي وراء هدف واحد وتحقيقه ، كما يجب أن تسير كافه كافة المنظمات النوبية تحت مظلة كيان نوبي جامع له أهداف واضحة وخطط مستقبلية تهدف لتنمية وتطوير المجتمع النوبي والحفاظ على التراث الثقافي النوبي المميز.

النتائج

١- لقد اختلفت طبيعة التحديات التي تواجه الحفاظ على التراث الثقافي داخل المجتمع النوبي، مما أثر بشكل واضح على دور هذا التراث في الحياة الثقافية والاجتماعية في المنطقة النوبية بشمال السودان.

٢- تمثلت التحديات والتهديدات التي تقف أمامهم في الحفاظ على تراثهم الثقافي في تحديات إجبارية وتحديات اختيارية بمعنى أن هنا تحديات فُرضت على النوبيين مثل التهجير القصرى التي تعرض له النوبيين نتيجة لإقامة السدود، والتي يعتبره النوبيين من أهم التحديات التي واجهتم في الحفاظ على التراث الثقافي، وهذا يرجع لارتباط التراث الثقافي النوبي بالبيئة الإيكولوجية في المنطقة النوبية والتي تمثلت في نهر النيل وما يرتبط به جزء كبير جداً من التراث الثقافي النوبي، بالإضافة لذلك نجد أن النوبيين لديهم اعتقاد قوى جداً أن هناك اتجاه حكومي على مدار السنوات الماضية للقضاء على النوبيين وتراثهم الثقافي ويستدلون على ذلك بالممارسات الحكومية ضدهم مثل بناء السدود في المناطق النوبية وما ينتج عنه من ضياع التراث النوبي.

٣- يعتبر النوبيون أن القضاء على اللغة النوبية هو القضاء عليهم تماماً وهذا ما تريده السلطات الحاكمة في السودان وهذا هو الرأي السائد لدى النوبيين.

٤- التغلب على هذه التحديات يقوم على تحالف النوبيين كقوة واحدة سواء كان في السودان أو خارج السودان لكى ، وتكاتف أعضاء المجتمع النوبي مع المثقفين النوبيين للمطالبة بممارسة أنشطتهم الثقافية المميزة باعتبارها من أهم الثقافات الموجود داخل السودان.

ويمكن القول أن الاهتمام بالتراث الثقافي يشكل ضرورة تاريخية حيوية، لأنه يشكل العمق التاريخي لوجودنا وكنزاً ثقافياً ثرياً لا يفنى لأجيال تريد أن تحقق وجودها وهويتها، لذلك يجب أن تقوم هذه الأجيال بتنمية القيم الإيجابية في هذا التراث والاستفادة منه في بناء الحاضر والمستقبل، فالتراث الثقافي لا نرثه بل نحن مؤتمنون عليه وديعة ثقافية لأطفالنا وأحفادنا من بعدنا يضمن لهم هويتهم ويضفى على حياتهم معنى ودلالة وقيمة إنسانية مميزة، وبالتالي يجب حمايته من الاندثار والتغلب على التحديات والتهديدات التي يتعرض لها.

المراجع

- أحمد محمد عبداللطيف(٢٠١٥) ترميم الآثار وأثرة في الحفاظ على التراث الثقافي والهوية الثقافية للسكان بالولاية الشمالية بالسودان: رسالة ماجستير (غير منشورة)، قسم الأنثروبولوجيا، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة.
- أيوب إسماعيل أيوب (٢٠١١) النوبي والنهر: دار عزة للنشر والتوزيع ، الخرطوم، السودان
- جمال عليان (٢٠٠٥) الحفاظ على التراث الثقافي ، عالم المعرفة ، العدد ٣٢٢ ، الكويت
- حسن عبدالرحمن (٢٠٠٧) التراث الشعبي الفلسطيني «هوية وانتماء»، جامعة القدس المفتوحة المؤتمر الأول للتراث الشعبي الفلسطيني.
- ريهام كامل الخضراوي (٢٠٠٣) الحفاظ على التراث العمراني لتحقيق التنمية السياحية المستدامة من خلال مؤسسات المجتمع المدني _ دراسة حالة واحة سيوة_ ، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الهندسة، جامعة عين شمس.
- سامى محمود إبراهيم(٢٠١٠) إشكالية الخطاب العلماني في قراءة التراث الإسلامي: مجلة دراسات إسلامية معاصرة، العدد الأول، جامعة كربلاء، العراق.
- عوض أحمد حسين(٢٠٠٨) دنقلا والدناقلة: فهرسة المكتبة الوطنية بالسودان.
- كرم الصاوي باز (٢٠٠٦) ممالك النوبة في العصر المملوكي: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- محمد جلال حسين(٢٠١٦) العوامل السيوسيوثقافية وعلاقتها بالصحة والمرض في كامبالا، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة.
- محمد على محمد، علياء شكري (١٩٩٢) قراءات معصرة في علم الاجتماع» النظرية والمنهج «، دار المتحدة: سلسلة علم الاجتماع، الكتاب السادس.
- محمد عمر طه (٢٠١٧) دور الأشعار والأمثال في الحفاظ على اللغة النوبية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، مركز يوسف الخليفة لكتابة اللغات بالحرف العربي ، جامعة إفريقيا العالمية، السودان.
- منيب إبراهيم سيد (٢٠٠١) صفحات من تاريخ وادى حلفا: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الرياض.
- Kent M. Reel(2004) CULTURAL HERITAGE, Railroad History, No190.
- Susan Kane(2015) Archaeology and Cultural Heritage in Post Revolution Libya, Near Eastern Archaeology, Vol. 78, No. 3, Special Issue: The Cultural Heritage Crisis in the Middle East (September 2015),